صفحات ونفحات

للدكتور محمد مصطفى حلمى
أستاذ الفلسفة الاسلامية والتصوف بكلية الآداب جامعة القاهرة

هى صفحات من النثر والنظم جرت على ألسنة أصحابها ، وجرت بهـا أقلامهم ، فأرسلتها ألفاظا وعبارات ولكنها ليست من جنس الألفاظ والعبارات التى يصطنعها الكتاب والشعراء عادة فى التعبير عن أشياء حسية ، وأشخاص بشرية ، وعواطف إنسانية ، وإنما هى صفحات قد فاضت بأروع النفحات الروحية ؛ وأشرقت بأنصع الومضات الإلهيـة ، وعبرت ألفـاظها وعباراتهـا عن أدق الدقائق وأسماها ، وأرق الحقائق وأنقاها ؛ وهى بعد هـذا كله أو قبل هـذا كله مرآة صادقة لما امتلأت به نفوس أصحابها من عواطف شريفة ، ومعارف لطيفة ، ولما تقلبت فيه هـذه النفوس من مقامات وأحوال ، وما كابدت من مشقات وأهوال ، وما حفت به من صفـاء ونقاء ، وما تهيأت له من فيض وإشراق ، وما ظفرت به من سعادة قصوى وبهجة عظمى ، فإذا هى تبدو فى ظاهرها عبارات من النثر وأبياتا من النظم ، ولكنها فى حقيقتها لآلئ منثورة وعقود منظومة ؛ لا يكاد يلم بها من كان له قلب وذوق حتى يأخذه ما تفيض به من رقة وروعة ، ويملك عليه نفسه وقلبه وعقله ما يترقرق بين أعطافها من معانى السحر وأسباب الفتنة ، ثم هو لا يكاد يمضى فى قراءتها ، والإمعان فيما وراءها من المعانى الدقيقة حتى يتبين له أن ما يقرأ إنما هو صفحات قد انطوت على أروع النفحات ، وعبارات قد قصد بها إلى التعبير عن حقائق أدق وأرق ؛ وعن دقائق أشرف والطف ، مما يشتمل عليه عالم الحس بما فيه من مظاهر زائلة ، وأعراض حائلة وما إلى هذه الأعراض وتلك المظاهر من الكائنات المادية والشهوات الحسية والهواجس الباطنية والوساوس النفسية التى ليست فى حقيقتها إلا طائفة من الحجب الكثيفة تحجب الإنسان عن وجه ربه ، وتحول بينه وبين تصفية قلبه .

ولست أعنى بهذه الصفحات التى فاضت بتلك النفحات شيئا آخر غير الآثار الروحية الرائعة التى خلفها الصوفية ؛ وتألف منها صرح التصوف الإسلامى ، وهو هذا الصرح الذى أقيم على دعائم من تصفية النفس ، وتنقية الحس ، وجلاء القلب ، وصفاء الحب والتسامى بالحياة الإنسانية إلى تحقيق المثل العليا ، والتحلى بأسمى ما ينبغى أن يتحلى به الانسان من معرفة الحق وفعل الخير وتذوق الجمال ، بحيث ينتهى فى علمه وعمله ، وفى كل مايصدر عنه من نظرة أو خطرة أو فكرة إلى أسمى مراتب الكمال .

على أن هذه الصفحات والنفحات ، على الرغم مما يشيع فيها من جمال وروعة ، وما تشيعه فى القلب والعقل من جلال ومتعة ، قد منيت بطائفة من أصحاب النفوس المظلمة ، وأرباب القلوب المغلقة ، فنظروا إليها نظرة إزورار عنها ونظروا إلى من أشرقت قلوبهم بأنوار الأنس ، وترقت قلوبهم فى معارج القدس ، على أنهم إنما يصدرون عن أوهام وخيالات ، ويعبرون عن جهالات وضلالات ، وأن ألفاظهم وعباراتهم التى يديرونها بينهم ، لا تدل على شىء له خطر أو فيه غناء ، وهى ان دلت على شىء فإنما تدل على أن أصحابها ليسوا من سلامة النفوس والعقول بحيث يكون لمن يسمعهم أن يصدقهم ، ولقد مضى هؤلاء المنكرون فى إنكارهم ، وذهبوا فيه إلى أبعد الحدود ، فاتهموا أصحاب النفحات الالهية فى دينهم تارة ، وفى خلقهم تارة أخرى وفى غير دينهم وخلقهم أطوارا ، واستعدوا عليهم السلطان حينا ، وأغروا بهم العامة حينا آخر ، وكان من هذا كله ما كان من محن وخطوب تعرض لها أصحاب النفحات ، لا لشىء إلا لأن الذين حكموا عليهم وأثاروا هذه الفتن حولهم كانوا من سوء الفهم بمكان من سوء النية بحيث لم يتهيأ لهم من دقة الحكم وسلامة الذوق وبراءة الغرض الحظ الذى يمكنهم من أن يوغلوا فى الحقائق الخفية ، ويتعرفوا على دقائق المعارف اللدنية .

وليس من شك فى أن المنكرين أو المزورين لو اصطنعوا القصد والاعتدال ، وتجنبوا مزالق الشطط والإسراف ، وفتحوا أعين بصائرهم على هذه الصفحات المنمنمة بالنفحات ، لرأوا ثمرا وجمالا وجلالا وكمالا ، ولتبين لهم أنه الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه اليقين الذى لا شك فيه ولا غبار عليه ، ولعرفوا أن الصوفية فيما خلفوا من صفحات ، وفيما ورد على قلوبهم من نفحات ، ...

يكونوا مسرفين ولا متطرفين ، ولم يكونوا واهمين ولا محرفين ، ولم تكن ألفاظهم وعباراتهم خلوا من المعنى ، وإنما هي على العكس من هذا كله لطائف ومعارف ، وحقائق ودقائق ، وأخلاق وأذواق ، وألوان من النور وضروب من الإشراق ، فيها رياضة ومجاهدة ، وكشف ومشاهدة ، وفيها تهذيب وتأديب ، وترغيب وترهيب ، وفيها فوق هذا كله استقاء من كتاب الله وسنة رسوله ، واقتداء بحياة نبي الإسلام ، ودعاء إلى مادعا إليه من حب وإخاء وسلام ، وهي لهذا كله ومن أجل هذا كله خليقة بأن نقف منها موقف الدراسين لها المقبلين عليها ، الذائقين لمعانيها ، المتعرفين لحقيقة أغراضها ومراميها ، العاملين على إظهار ما تنطوي عليه وترمي إليه من أسمى معاني الحق والخير والجمال ، وكل أولئك معان لو عملنا على إبرازها ، وأخذنا أنفسنا بها ، ودعونا غيرنا اليها ، لأدينا واجبنا العلمي والروحي كأحسن ما يؤدى الواجب من مسلم نحو اخوانه المسلمين من ناحية ، ونحو تراثه الروحي الاسلامي من ناحية أخرى .

وإذا كان ذلك كذلك فأنا أرجو مخلصا أن أوفق إلى الابانة عن كل هذه المعاني فيما سأقف عنده من صفحات الصوفية المشرقة ونفحاتهم المتألقة في وقفات مقبلة .

محمد مصطفى حلمي

إلى السادة المشتركين

« ترجو إدارة المجلة من السادة المشتركين الذين لم يصلهم العدد الأول التفضل باخطارها عن الرقم الخاص باشتراكهم لتتمكن الادارة من بين الأعداد الفوري .